الـرحـــلات الخمـــس (٢٥)

يقول الصحابي الجليل سـلمان الفارسـي : كنت فتى فارسياً مجوسياً أعبـد النار مـن أهل أصبهان ، من قريـة يقال لها جيـان . كان أبي رئيس القريـة ، وكان أعلاهم منزلةً وأكثرهم مـالاً . كان يحبني جداً ، فكنت أحب خلق الله إليه منذ ولدت ، ثم ما زال حبه لي يشتد ويعظم ، حتى أصبح يكره خروجي من البيت خشـية علي من أذى الصبيان وعراكهم . كان يحبسـني كثيـراً في البيـت كما تحبس البنت . وبعد أن كبـرت قليلاً .. اجتهدت كثيراً في ديني المجوسـية ، حتـى أصبحت المسؤول الأول في القرية عن النار التي نعبدها ، فأوكلوا لي أمر إشعال النار كي لا تنطفىء أبداً أو تخبو ساعةً من ليلٍ أو نهار .

كان لأبي مزرعة عظيمة كثيرة الأشجار والثمار ، فنجني منها محاصيل كبيـرة وكثيـرة كل عام . وكان أبي يحب هذه المزرعة ، فهو من يشـرف عليها ويرعاهـا ويتعهد عمالها ، وهو من يشـرف على جنـي الثمار وبيعها .. كان يحبهـا ويقضـي أكثر أوقاتـه فيها . وفي ذات مـرة .. شـغله بنيان له عن الذهـاب إلى المزرعـة ومتابعة أمرهـا وعمالهـا ، فقـال لـي : يا بني .. إني

---

(٢٥) المصدر : كتاب صور من حياة الصحابة لعبدالرحمن رأفت الباشا .. بتصرف .

قـد انشـغلت عن المزرعة بما ترى مـن أمر هذا البنيـان ومتابعة العاملين عليه ، فاذهب أنت اليوم بدلاً عني إليها وتولَّ أمرها ، ثم عد إليَّ قبل غروب الشمس ، وأطلعني على خبرها وخبر عمالها .

وفي الصبـاح .. خرجت أقصـد مزرعة أبي ، وفي الطريـق لفت انتباهي أصوات تنطلق من كنيسة للنصارى ، فاقتربت من الكنيسة ثم دخلت فيها لأنظر ما يصنع النصارى وأستطلع أمر هذه الأصوات والترانيم . فشاهدت النصـارى وهم يصلون صلاتهم وينشـدون هذه الأصـوات . لم أكن أعرف شيئاً من أمر دين النصارى أو اليهود أو غيرهم من أصحاب الأديان ، وذلك من طول وكثرة ما حبسني أبي عن الناس في بيتنا .

فلمـا تأملت وتفكرت بصـلاة النصـارى ، أعجبتنـي صلاتهـم وقلـت : والله هـذا خير من الـذي نحن فيه . ولقد سـألتهم : أين أجد أصل هذا الديـن ؟ قالـوا : في بلاد الشـام . فوالله ما تركتهم حتى غربت الشـمس . فنسـيت ضيعة أبي ولم أذهب إليها حتى ساعة . فلما أقبل الليل .. رجعـت إلـى أبـي وقد بعـث في طلبي وشـغلته بتأخري عن الرجوع إلى البيت عن عملـه كلـه . فقـال : أيـن كنـت ؟ ألم أكن عهدت إليك مـا عهدت من أمر

الضيعة ؟ فقلت : يا أبت إني مررت بأناس يصلون في كنيسة لهم ، فأعجبني ما رأيت من دينهم وصلاتهم ، وما زلت عندهم حتى غربت الشمس . فذعر أبي مما صنعت وقال : أي بني ، ليس في ذلك الدين خير .. بل دينك ودين آبائك خيرٌ منه . فقلت : كلا والله ، إن دينهم لخير من ديننا . وهنا خاف أبي مما أقول ، وخشي أن أرتد عن ديني ، فحبسني بالبيت ووضع قيداً في رجلي .

حبسني أبي في البيت أياماً ، وكنت في هذا الحبس أتحين الفرصة للاتصال بالنصارى لمساعدتي على الخروج إلى الشام . فلما أتيحت لي الفرصة .. بعثت برسالة إلى النصارى أقول لهم : إذا قدم عليكم أناسٌ أو ركبٌ من الشام وقد قضوا حوائجهم وأرادوا الرجعة إلى بلادهم فأعلموني . فما هو إلا قليل حتى قدمت قافلة من تجار نصارى الشام ، فأخبروني بها . فاجتهدت في فكِّ قيدي حتى حللته ، وخرجت مع القافلة متخفياً حتى بلغنا بلاد الشام .

فلما نزلنا فيها .. سألت : من أفضل رجل في الشام في دين النصارى ؟ فقالوا : الأسقف راعي الكنيسة (الأسقف مرتبة من مراتب دين النصارى

فهو فوق القسيس ودون المطران) . فجئت راعي الكنيسة وقلت له : إني قد رغبت في النصرانية ومال قلبي إليها ، وقد أحببت أن ألزمك وأخدمك وأتعلم منك وأصلي معك . فقال : نعم . فدخلت عنده في كنيسته ، وجعلت أخدمه في كل ما يأمر ويطلب .

لكني وبعد فترة من الزمن ، وبعد أن لزمته وعملت في خدمته .. عرفت أن الرجل رجل سوء ومكر قد باع دينه ومال إلى الدنيا ومالها . فقد كان يأمر أتباعه بالصدقة ويرغبهم فيها وفي ثوابها ، ثم إن أعطوه مالاً لينفقه في سبيل الله ، اكتنزه لنفسه ولم يعط الفقراء والمساكين منه شيئاً .. حتى جمع سبع سلالٍ عظيمةٍ من الذهب والفضة . فأبغضته بغضاً شديداً لما رأيته منه . ثم ما لبث أن مات فاجتمعت النصارى لدفنه ، وكانوا حزينين عليه متأثرين بفراقه وفقده ، فقلت لهم : إنَّ صاحبكم لا يستحق كل هذا الحزن منكم ، فقد كان رجل سوءٍ ، يأمركم بالصدقة والنفقة ويرغبكم فيها ، فإذا جئتم بها اكتنزها لنفسه وبخل بها ولم يعط المحتاجين منها شيئاً . قالوا : كيف عرفت ذلك ؟ قلت : أنا أدلكم على كنزه وسلاله . قالوا : نعم دلنا عليه . فأريتهم مخبأه فاستخرجوا منه سبع سلال مملوءةً ذهباً وفضةً . فلما رأوا كنزه هذا قالوا : والله لا ندفنه . ثم صلبوه ورموه بالحجارة .

فلـم يمض وقت طويل .. حتى نصَّبوا على الكنيسـة رجلاً آخر مكانه . فلزمته ، فما رأيت رجلاً أزهد منه في الدنيا ، ولا أرغب منه في الآخرة ، ولا أكثـر منه عبادة في ليل أو نهار .. فأحببتـه حباً عظيماً ، وأقمت معه زماناً . فلمـا حضرتـه الوفاة .. قلت لـه : يا فلان إلى من توصـي بي ، ومع من تنصحنـي أن أكون معه مـن بعدك ؟ فقال : أي بني ، لا أعلم أحداً على ما كنـت عليـه إلا رجلاً في العراق في مدينة الموصل هو فلان بن فلان ، فهو لم يحرِّف ولم يبدِّل .. فاذهب إليه فهو أعبد الناس .

فلمـا مات صاحبي ، لحقـت بالرجل في الموصل . فلمـا قدمت عليه .. قصصـت عليـه خبري وقلت له : إنَّ فلاناً أوصانـي عند موته أن ألحق بك ، وأخبرني أنك مستمسكٌ بما كان عليه من الحق . فقال : أقم عندي . فأقمت عنـده فوجدته على خير حال مثل صاحبـي الثاني . ثم ما لبث أن حضرته الوفـاة فقلـت له : يا فـلان لقد جاءك من أمر الله ما تـرى ، وأنت تعلم من أمـري ما تعلم ، فإلى مـن توصي بي ؟ ومن تأمرني باللحاق به ؟ فقال : أي بني ، والله ما أعلم أنَّ رجلاً على مثل ما كنّا عليه إلا رجلاً بنصيبين [٢٦] وهو فلان بن فلان ، فالحق به .

---

(٢٦) نصيبين : مدينة في جنوب شرق تركيا في محافظة ماردين تقع على سفح جبل إيزلا . والمدينة تقع بين نهري دجلة والفرات ملاصقة لمدينة القامشلي السورية ، ويخترقها نهر مقدونيا أو الهرماس أو ما يعرف اليوم بنهر الجغجغ .

فلما مـات الرجل وغُيِّب في لحده .. لحقـت بصاحب نصيبين وأخبرته خبـري وما أمرني به صاحبي . فقال : أقـم عندنا . فأقمت عنده فوجدته علـى ما كان عليه صاحباه من الخير والعبادة والزهد في الدنيا . فوالله ما هـي إلا أيامـاً حتى نزل به الموت . فلما حضرته الوفاة قلت له : لقد عرفت مـن أمري ما عرفت ، فإلى من توصـي بي ؟ فقال : والله إني ما أعلم أحداً بقى على أمرنا إلا رجلاً بعمورية (٢٧) هو فلان بن فلان ، فالحق به .

فلما مات صاحبي الثالث .. سـافرت من فـوري إلى عمورية لأقيم عند الرجل الصالح الذي أوصاني به . فما وصلت إلى داره وأخبرته خبري ، قال : أقم عندي . فأقمت عنده ، وإذا به والله رجل خير وعبادة على هدي أصحابه الثلاثة . وقد اكتسـبت من عملـي وأنا عنده في خدمته وخدمة الكنيسـة ، بقرات وغنيمة . وبعد أشـهر قليلة .. نزل به ما نزل بأصحابه من أمر الله . فلما حضرته الوفاة ، قلت له : إنك تعلم من أمري ما تعلم ، فإلى من توصي بـي ، وما تأمرني أن أفعل ؟ فقال : والله يـا بني ما أعلم أن هناك أحداً من الناس بقي على ظهر الأرض متمسكاً بما كنا عليه من ديننا ، ولكنه قد دنا وقرب زمان يخرج فيه من أرض العرب نبي يبعثه الله على دين إبراهيم ، ثم

(٢٧) عمورية : مدينة في تركيا تقع جنوب غرب مدينة أنقرة . وعمورية اليوم مدينة مهجورة بعد هجوم الخليفة العباسي المعتصم عليها عام ٢٢٣ هـ . وبقاياها تقع بالقرب من قرية حصار كوي في محافظة أفيون قرة التركية .

يهاجر من أرضه إلى أرض ذات نخلٍ بين حرتين (أرض ذات حجارة سوداء بارزة) . وهذا النبي له علامات واضحة لا تخفى ، فهو يأكل من الهدية ولا يأكل من الصدقة ، وبين كتفيه خاتم النبوة . فإن استطعت أن تلحق بتلك البلاد فافعل .

فلما مات صاحبي الرابع ، مكثت بعده زمناً إلى أن مرَّ بعمورية نفرٌ من تجار العرب من قبيلة كلب ، فقلت لهم : إن حملتموني معكم إلى أرض العرب ، أعطيتكم بقراتي وغنيمتي . فقالوا : نعم نحملك . فأعطيتهم إياها وحملوني معهم . حتى إذا بلغنا وادي القرى (وادٍ بين الشام والمدينة المنورة) غدروا بي وباعوني لرجل من اليهود ، فصرت عند هذا اليهودي عبداً أخدمه . فما لبث أن زاره ابن عم له من بني قريظة فاشتراني منه ونقلني معه إلى يثرب . فلما رأيت النخل الذي ذكره لي صاحبي بعمورية وصخورها السوداء التي تحيط بها ، عرفتها بالوصف الذي وصفه لي صاحبي .. وفرحت بذلك فرحاً عظيماً .

كان النبي [حينئذ يدعو قومه في مكة .. لكنني لم أسمع له بذكر لانشغالي بخدمة سيدي وما يوجبه الرق من العمل والطاعة والحبس

. ثـم مـا لبث أن هاجر رسـول الله [إلى يثرب ، فوالله إنـي كنت لفي رأسِ نخلةٍ لسـيدي أعمل فيها بعض العمل وسـيدي جالـس تحتها ، إذ أقبل عليه ابن عمٍ له وقال له : قاتل الله بني قيلة (الأوس والخزرج) والله إنهم الآن لمجتمعـون بقباء على رجل قدم عليهم مـن مكة يزعم أنه نبي . فما أن سـمعت مقالته حتى مسَّـني ما يشـبه الحمى ، فاضطربت اضطراباً شديداً حتى خشيت أن أسقط على سيدي . فبادرت إلى النزول عن النخلة وجعلت أقول للرجل : ماذا تقول ؟ أعد عليَّ الخبر . فغضب سيدي ولكمني لكمة شديدةً ، وقال لي : ما لك ولهذا ؟! عُد إلى ما كنت عليه من عملك .

فلما كان المسـاء .. أخذت مـن تمر كنت قد جمعته بإذنٍ من سـيدي ، وتوجهـت ببعضه إلى حيث ينزل الرسـول [. فدخلت عليه وقلت : إني قد بلغني أنك رجل صالح ، ومعك أصحاب لـك غرباء ذوو حاجة ، فهـذا شيء كان عندي للصدقة وإني رأيتكم أحق به من غيركم . فأخـذت التمر وقربته إليه . فقال لأصحابـه : كلوا .. وأمسك يده هو ولـم يأكل . فقلت في نفسي : هذه واحدة . فلما تحوَّل الرسـول من قباء إلى المدينة ، جئته ببعض التمر وقلـت له : إني رأيتك لا تأكل الصدقة ، وهذه هدية أكرمتك بها . فمد يده وأكل منهـا وأمر أصحابه فأكلوا معه . فقلت في نفسـي : هذه الثانية . ثم

جئت رسول الله وهو ببقيع الغرقد (مكان في المدينة المنورة جُعل مقبرة) حيث كان يدفن أحد أصحابه . فرأيته جالساً وعليه شملتان ، فدنوت منه وسلَّمت عليه ، ثم استدرت أنظر إلى ظهره لعلي أرى خاتم النبوة الذي وصفه لي صاحبي في عمورية . فلما رآني النبي [أنظر إلى ظهره وكأني أتثبت من شيء ، عرف غرضي ، وألقى رداءه عن ظهره . فنظرت فرأيت الخاتم فعرفته ، فانكببت عليه أقبِّله وأبكي . فقال النبي [: ما خبرك ؟! فقصصت عليه قصتي ، فأعجب بها وسرَّه أن أُسمعها لأصحابه .. فأسمعتهم إيّاها . فعجبوا منها أشد العجب ، وسُرّوا بها أعظم السرور .

ولقد شغلني الرق بعد ذلك حتى فاتتني غزوة بدر وأحد مع النبي [وأصحابه . فأشار عليَّ رسول الله [بالمكاتبة مع سيدي اليهودي . فكاتبته على زراعة ٣٠٠ نخلة في بستانه وأربعين أوقية . فقال رسول الله [لأصحابه : أعينوا أخاكم . فأعانوني بالنخل ، فرجل يأتيني بثلاثين فسيلة ، ورجل بعشرين ، ورجل بخمس عشرة ، ورجل بعشر .. حتى اجتمع لي ٣٠٠ فسيلة . فقال له النبي [(في معنى حديثه) : اذهب يا سلمان وجهِّز لها الأرض واحفر لها ، فإذا فرغت فأتني فأكون أنا من يضعها بيديه في مكانها . فلما فرغت من تجهيز الأرض وحرثها ، جئته فأخبرته .

فخرج رسـول الله [إلى البستان ، وجعلنا نقرب إليه الفسيلة فيضعها بيده الشـريفة في حفرها . فوالذي نفسـي بيده ما ماتت منها فسـيلة واحدة . فأديت حق النخل وبقى عليَّ المال .

فسـأل النبي [أصحابه عني وقال : ما فعل الفارسي المكاتب ؟ فدُعيت له ، ولما رآني أعطاني قطعة ذهب مثل بيضة الدجاجة كان قد كسبها من بعض مغازيه ، وقال : خذ هذه وأدِّي بها ما عليك يا سلمان . فقلت : وأين تقـع هذه يا رسـول الله مما علي ؟! فالمال الـذي علـيَّ هو أربعين أوقية ، وهذه القطعة من الذهب لا تسـاويها . فقال : خذها فإن الله سيؤدي بها عنـك . قال فأخذتها فوزنوها ، فوالذي نفس سـلمان بيده كانت أربعين أوقية ، فأوفيتهم حقهم وعتقت . وبعد تلك الحرية من الرق وحبسـه .. شهدت مع رسول الله المشاهد كلها ولم يفتني معه شيء منها .

وإلى هنـا انتهى حديث الباحـث عن الحقيقة سـلمان الفارسي رضـي الله عنـه ، لكن قصتـه وكـرم الله عليـه وتوفيقه له لم ينتـه بعـد . ففي

العام ١٥ هـ وبعد معركة القادسية والمدائن وهزيمة الجيش الفارسي فيهما على أيدي المسلمين ، هرب كسرى الفرس من المدائن – عاصمة الدولة الفارسية – تاركاً إياها غنيمة للمسلمين أرضاً من أرضهم تحت حكمهم ونفوذهم . فأصبح ملك كسرى وعرشه في المدائن خالياً يتطلع لحاكم جديد يتربع عليه ويحكمه بالعدل والسويَّة . فاختار أمير المؤمنين عمر بن الخطاب – رضي الله عنه – سلمان الفارسي أميراً على المدائن .. أميراً على أكبر مدن الأرض في ذلك الزمان . فأضحى العبد الذي كان يُباع ويشترى أميراً سيداً مطاعاً على طول البلاد وعرضها . فصدق الله الملك العظيم في قوله : " قل اللهم مالك الملك ، تؤتي الملك من تشاء ، وتنزع الملك ممن تشاء ، وتعز من تشاء ، وتذل من تشاء ، بيدك الخير ، إنك على كل شيء قدير " [٢٨] .

أعجبتني كثيراً قصة الفتى سلمان رضي الله عنه وبحثه المخلص المستميت عن الحقيقة بعدما تجرد من كل موروثه الاجتماعي والثقافي والديني ليصيب الدين الحق . بحثه الذي جرَّد به عقله عن الأهواء والأطماع وحظوظ النفس ليترك له الحكم المنطقي العادل على ما يلاقيه من الأديان . أنظر إليه وهو يزهد بتدليل والده له ، وهو يهرب من

---

(٢٨) سورة آل عمران ، آية ٢٦ .

أموال أبيه وبساتينه وحسبه ومكانته في قومه ، وهو يتحمل حبس والده له وتهديده ووعيده . أنظر إلى سلمان وهو يهجر وطنه ووالديه وأحبابه ويقصد الشام متحملاً السفر ومفاجآته ومجهولاته . يعرف مكان سلال الذهب التي خبأها راعي الكنيسة الأول ولا يأخذ منها شيئاً ، ويدل الناس على الكنز كله . يقيم ويخدم زمناً معلميه من رجال الكنيسة الذين ظهر له صلاحهم وزهدهم ، ويسافر لهم من الشام إلى العراق إلى تركيا إلى المدينة المنورة . ينسلخ من كل ما جمعه من الدنيا ليقدمه أجرة لمن يحمله إلى أرض العرب . يتحمل الرق والعبودية وأيامها وربما سنينها الطوال الثقال من أجل أن يكون قريباً من مكان النبي الذي اقترب زمانه .

أعجبني سعيه الحثيث رضي الله عنه وهمته في إشباع حاجته إلى الدين ، الذي ربما أشعره باستقرار وطمأنينة فكرية روحية لم يجدها في دين المجوسية . سعياً لم يلتفت معه رغم طول الرحلة إلى الوطن والاستقرار والأطلال والأصحاب والذكريات ومراتع الصبا ، بل كان سعياً صادقاً إلى الحقيقة مهما كان موطنها ومسافاتها وأثمانها . ولعل الله العليم الرحيم العدل اطلع على قلب سلمان رضي الله عنه وبحثه الصادق عن الدين الحق ، فهداه إلى أرض نبيه [في المدينة ، ليعلن

إسلامه أمامه ويكون من جملة أصحابه . فصدق الله القائل : ﴿ والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا ، وإنَّ الله لمع المحسنين ﴾ [٢٩] .

لعلك الآن عزيزي القارىء تبادلني الإعجاب بهذه القصة .. أليس كذلك ؟ لكن رويدك لا تذهب بإعجابك بعيداً ، وانتظر حتى تسمع مني قصتي التالية التي أدهشتني واستوقفتني كثيراً كما استوقفت غيري من الكتّاب والعلماء والصالحين . فبطلها كان أنموذجاً فريداً في التأمل والتحرّي والتجرد والزهد . فلم يكن بحثه بحث مقارنة بين حق وضلال ، أو نهار وليل ، أو بين دين سليم واضح في منطقه ومنهجه وعقائده وبين أديان أخرى أشركت وثلثت وشرقت وغربت ، لكنه كان بحثاً صادقاً في أعمال صالحة قدمها ، وتأملاً عميقاً في علوم علَّمها ، وتمحيصاً وتدقيقاً في خير كثير أرشد إليه !! بحث صعب لم أر له مثيلاً . اسمع مني قصة محمد بن محمد بن محمد بن أحمد الطوسي (٤٥٠ – ٥٠٥ هـ) .

برع محمد الطوسي (المعروف بالإمام أبي حامد الغزالي) بفنون شتى من العلم مثل الفقه وأصول الفقه والخلاف والمنطق والفلسفة ، وصنَّف فيها كتباً مبهرة رصينة ، اشتملت على شروح وعبارات تعجز الأدباء والبلغاء

---

(٢٩) سورة العنكبوت ، آية ٦٩ .

عن أمثالها . كان شديد الذكاء ، مفرط الإدارك ، قوي الحافظة ، صاحب حجة وبيان . كان الإمام أبو المعالي الجويني إمام الحرمين يقول فيه : الغزالي بحر مغدق . وقال تلميذه محمد بن يحيى : الغزالي هو الشافعي الثاني . وقال عنه خطيب نيسابور أبو الحسن عبدالغافر بن إسماعيل : الغزالي حجة الإسلام وإمام أئمة الدين ، لم ترَ العيون مثله لساناً وبياناً ونطقاً وذكاءً وطبعاً (طبقات الشافعية للسبكي ٦ / ١٩١) .

قَدِم في صباه من طوس إلى نيسابور (كلا المدينتين في شمال شرق إيران) قاصداً دروس إمام الحرمين الجويني ، فلازمه وجدَّ واجتهد في دروسه ، حتى ظهرت نبوغته ، وعلت مكانته ، وفاق أقرانه . فلما مات الإمام الجويني (الذي عدَّه المؤرخون صاحب الأثر الأكبر والأخصب على تكوين فكر الغزالي) ، خرج الغزالي إلى الوزير نظام الملك في بغداد الذي كان مجلسه عامراً بأكابر العلماء وفحولهم - لإجلاله ودعمه الدائم لهم - فحضر مجلسه وناظر العلماء بين يديه . فقهر الغزالي خصومه ، وعلت حُججه وبراهينه ، واعترف الجميع بعلمه وتنوع ميادينه . وعندئذ .. تلقّاه الوزير نظام الملك بالتعظيم والتبجيل ، وأقرَّ له بالفضل وعلو الإمامة . فبالغ في الإقبال عليه وولاه أمر التدريس في مدرسته النظامية في بغداد ،

التي كانت بمثابة الجامعة الأولى في العالم العربي والإسلامي آنذاك .

توجه الإمام الغزالي إلى المدرسة النظامية عام ٤٨٤ هـ ، وبدأ التدريس والفتيا والتأليف فيها وعمره ٣٤ عاماً . فأُعجب الناس بفقهه وعلومه ، وحججه وبراهينه ، وفصاحته وبيانه ، وكمال فضله وجمال إشاراته . أحبه الناس فصار عظيم الجاه ، عالي الرتبة ، مسموع الكلمة ، عالي الحشمة والدرجة ، يغلب صيته صيت الأكابر والأمراء ودار الخلافة في بغداد . بل أصبح مشهوراً في الآفاق ، تُضرب به الأمثال وتُشد إليه الرحال ، ويتقاطر على مجلسه آلاف من طلاب العلم ، ومئات من العلماء الكبار أصحاب العمائم العظيمة . لقد صار اسمه وعباراته تتذاكرها حلقات العلم في كل حدب وصوب . سُئل عنه الإمام علي بن عبدالكافي السبكي فقال : وماذا يقول الإنسان في الغزالي وفضله واسمه قد طبقا الأرض (طبقات الشافعية ٦ / ٢٥٣) . وقال الإمام الذهبي عنه : الإمام البحر ، حجة الإسلام ، أعجوبة الزمان ، صاحب التصانيف والذكاء المفرط (سير أعلام النبلاء ١٩ / ٣٢٢) .

لكنه عند تلك الشهرة والمكانة العلمية التي سما فيها بسرعة إلى الأوج ، وبعد أن ملأ قلوب العامة والخاصة إعجابا وتبجيلاً ، تجرَّد من ذلك الجاه كله ولبس لبس الفقراء . لبس الفقراء !! لماذا يا إمام ؟! إنه قراره العجيب

الذي أدهشـــني وأدهش غيري من الناس . لقد قرر ترك النظامية والنزول عن صدارته فيها .. لقد قرر أن يترك مجده وشهرته وراء ظهره ! هل تصدق هذا ؟ ما الأمر ؟ ما الذي حصل له أو وقع عليه ؟! هل هو حســد حاســد ؟ أم غيرة عالم ؟ أم إنه غضب سلطان ؟

إنَّه قد ســبر غور نفسه ليشــاهد فيها آفات قلبية تكاد تفتك به وتذهب بآخرته . لقد رأى في نفسه (كما صرَّح عن ذلك في كتابه المنقذ من الضلال) إقبــالاً علــى مجد الأســتاذية والتعليم ، وتباهياً ممقوتــاً على الآخرين بالعلــوم ، واســتخفافاً بالمناظريــن والخصــوم . لقد وجد في نفســه حب الظهور ، البحث عن الشــهرة ، منافســة الأقران ، وقصداً لاهثاً وراء المجد الدنيوي . فلما رأى كل تلك العلل النفسية والأمراض القلبية قد غشيته ، أصابه شعور بالامتعاض مما هو فيه ، وتسرَّب إليه فتور كرَّه إليه الاستمرار في عمله . فأعرض عن النظامية ، ولبس لبس العامة الفقراء ، وقصد بعد ذلك الحج إلى بيت الله الحرام . كان ذلك عام ٤٨٨ هـ .

وبعــد أن حجَّ الغزالي رحمه الله في تلك الســنة ، اتجه إلى الشــام على هيئــة الفقراء وأقام فيهــا أياماً . ثم قصد بيت المقــدس فجاوره مدة ، ثم عاد إلى دمشــق واعتكف في الجامع الأموي أســفل المنــارة الغربية متنكراً

بــزي عامي فقير كي لا يطلع على حاله أحــد . كان إذا لاحظ تنبه الناس إلــى علمه وكاد أن ينفضح أمره بينهم ، غاب عن البلدة أياماً ، ثم عاد إليها بمظهر آخر من المســكنة والفقر وقد نَســي الناس ذكره . اعتكف في الجامع الأموي على العبادة والطاعة ، والاســتغفار والتسبيح ، وتطهير النفس من الرعونات والأمراض ، وصرف النية وثنيها عن طلب الرئاسة والصدارة . بدأ الغزالــي مرحلة تهذيب النفس من المكدِّرات والنواقص والرذائل ، وتحليتها بالذكــر والفضائــل ، وتحصينها بلزوم الطاعات وقراءة ســير الأوائل . فما أن اســتمر في ذلك حتى انقلب شــيطان التباهي وطلب الجاه إلى سكون في النفس ، وكرم في الأخلاق ، وقصر في الأمل ، واشــتغال جاد في أمر الآخرة . ومع بداية هذا التدريب على هذا الانضباط النفسي الأخلاقي ، بدأت يده تخط كتابه الشهير الماتع " إحياء علوم الدين " .

كتابه الإحياء الــذي يعكس إفاقته وصحوته من أحلام الصدارة والزعامة التي غشيته في بغداد ، ونضجه الفكري وتعافيه النفسي السلوكي الذي ظهر عليه بعد أن هرب من بغداد وهجرها إلى العزلة والتأمل في دمشــق . فها هو يســطِّر عشــرات الصفحات في المجلد الأول عن العلــوم المحمودة والمذمومة ، وآفــات المناظرة والجدال ، وعلماء الســوء وعلماء الآخــرة ، منبهاً بها الناس

ولا سيما العلماء وطلبة العلم من خطر الإنجذاب وراء شهوات النفس من حب الظهور ، وإتقان الجدال ، وانتقاص المخالفين والأقران . فهي شهوات لا تأتي إلا بالآثام والأسقام من كذب وإفتراء وكره وحسد وبغض وغيبة . فأتى بعبارات منتقاة رائعة للسلف الأوائل ، أو شيئاً من سيرتهم يبين فيها حرصهم على سلامة النية والقصد ، وانتباههم لمزالق التعلق بالدنيا والشهرة والتقرب إلى السلطان .

فروى الغزالي عن ابن عمر رضي الله عنهما أنه يُسأل عن عشر مسائل ، فيجيب عن واحدة ويسكت عن تسع . وروى عن عبدالرحمن بن أبي ليلى قوله : أدركت في هذا المسجد ١٢٠ من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ما منهم أحد يُسأل عن حديث أو فتيا إلا ودَّ أنَّ أخاه كفاه ذلك . وروى عن أبي حصين الأسدي قوله : إنَّ أحدهم ليُفتي في مسألة لو وردت على عمر بن الخطاب رضي الله عنه لجمع لها أهل بدر .

كما روى الغزالي عن الإمام الشافعي رحمه الله قوله : وددت لو انتفع الناس بهذا العلم وما نُسب إليَّ شيء منه . وقوله : ما ناظرت أحداً قط فأحببت أن يخطئ . وقوله : ما كلمت أحداً قط إلا أحببت أن يُوفَّق ويُسدد

ويعـــان ويكون عليه رعاية من الله وحفظ ، ومـــا كلمت أحداً قط وأنا أبالي أن يبين الله الحق على لســـاني أو لســـانه . وقوله : ما أوردت الحق والحجة على أحد قط فقبلها مني إلا هبته واعتقدت محبته ، ولا كابرني أحد على الحق ودافع الحجة إلا سقط من عيني ورفضته .

وأورد قول الشـــافعي في الإمام مالك رحمه الله : إني شـــهدت مالكاً وقد سُئل عن ٤٨ مسألة ، فقال في ٣٢ منها : لا أدري (قال الغزالي معلقاً : ومن يُرِد غير وجه الله تعالى بعلمه فلا تسمح نفسه بأن يقرَّ على نفسه بأنه لا يدري) .

وروى الغزالي عن الإمام أبي حنيفة رحمه الله أنَّ يزيد بن هبيرة عرض عليـــه أن يكون حاكماً على بيـــت المال فأبى ، فضربه ٢٠ ســـوطاً وما أجابه إلـــى طلبه (قال الغزالي معلقـــاً : فانظر كيف هرب أبو حنيفة من الولاية واحتمل العذاب) .

ورَوى عن ابن مسعود رضي الله عنه قوله : إذا مالت قلوب العلماء إلى حب الدنيـــا وإيثارهـــا على الآخرة ، فعند ذلك يســـلبها الله تعالى ينابيع الحكمة ويطفئ مصابيح الهدى من قلوبهم . فيخبرك عالمهم حين تلقاه أنه يخشـــى

الله بلسانه والفجور ظاهر في عمله ، فما أخصب الألسن يومئذ ! وما أجدب القلوب ! فوالله الذي لا إله إلا هو ما ذلك إلا لأن المعلمين علموا لغير الله تعالى ، والمتعلمين تعلموا لغير الله تعالى .

ورَوى عن ابن السماك رحمه الله قوله : كم من مذكِّر بالله ناس له ، وكم من مخوِّف بالله جريء عليه ، وكم من مقرِّب إلى الله بعيد عنه ، وكم من داع إلى الله فار منه ، وكم من تال لكتاب الله منسلخ عن آياته .

كذلك سطَّر الغزالي في كتابه هنا وهناك عبارات مليحة مشرقة جميلة منها قوله : إيّاك أن تشتغل بما يُصلح غيرك قبل إصلاح نفسك ... فما أشد حماقة من دخلت الأفاعي والعقارب تحت ثيابه وهمت بقتله ، وهو يطلب مذبة يدفع بها الذباب عن غيره ممن لا يغنيه ولا ينجيه مما يلاقيه من تلك الحيات والعقارب (١ / ٥٨ – ٥٩) . وقال : إنَّ القلب إذا فرغ من المذموم امتلأ بالمحمود ، والأرض إذا نُقِّيت من الحشيش نبت فيها أصناف الزرع والرياحين (١ / ٥٩) . وقال : انظر إلى مناظري زمانك اليوم كيف يَسْوَدُّ وجه أحدهم إذا اتضح الحق على لسان خصمه ؟ وكيف يخجل به ؟ وكيف يجهد في مجاحدته بأقصى قدرته ؟ وكيف يذم من أفحمه طول عمره

؟ ثم لا يستحي من تشبيه نفسه بالصحابة رضي الله عنهم في تعاونهم على النظر في الحق (١ / ٦٤) . وقال : وهِمَّة الرجل مع قرة عينه ، فإن كانت قرة عينه في الدنيا انصرف لا محالة إليها هَمُّه . ولكن مع هذا فلا ينبغي أن يترك المجاهدة ورد القلب إلى الصلاة وتقليل الأسباب الشاغلة ، فهذا هو الدواء المر ، ولمرارته استبشعته الطباع وبقيت العلة مزمنة وصار الداء عضالاً . حتى إنَّ الأكابر اجتهدوا أن يصلوا ركعتين لا يحدِّثوا أنفسهم فيها بأمور الدنيا فعجزوا عن ذلك . فإذن لا مطمع فيه لأمثالنا ، وليته سلم لنا من الصلاة شطرها أو ثلثها من الوسواس لنكون ممن خلط عملاً صالحاً وآخر سيئاً (١ / ٢١٩ – ٢٢٠) .

قارئي الكريم .. يقع كتاب الإحياء في أربعة مجلدات ، وما كتبته هنا إنما هو نزر يسير جداً من المجلد الأول مما أحببت أن أهديه إياك من لطائف الإمام وروائعه ، وإلا فالكتاب قد زخر بعلوم كثيرة شاملاً التفسير والعقيدة والفقه والذكر والدعاء والآداب والأخلاق والرقائق والبلاغة والفلسفة وعلم الكلام والنفس والتربية ، ولك الخيار أن تُبحر وتستمتع مع أيِّها شئت . عاب بعض العلماء على الكتاب كثرة الأحاديث الضعيفة والموضوعة فيه ، لكن الإمام والمحدِّث الحافظ زين الدين العراقي

رحمه الله عالج هذا الخلل ، فخرَّج أحاديث الإحياء وبيَّن الصحيح منها والضعيف في كتابٍ ذيله على الإحياء أسماه المغني عن الأسفار ، فسدَّ هذه الثغرة وسدد عمل أخيه ، فرحمهما الله جميعاً .

هو الإحياء الذي كتبه صاحبه وقد ترك الدنيا وراءه ، وصفّى ذهنه من مشتتاتها وهمومه ، وفرَّ إلى الله ونَسِيَ زعامته وخصومه . فانظر بأي نور يبصر ، وبأي مداد يُملي ويكتب . فلا تعجب كيف أصبح كتابه عظيماً ذائع الصيت ، أقبلت عليه الناس ، وسارت به الركبان شرقاً وغرباً .

اتفق يوماً والغزالي جالس في صحن الجامع الأموي وجماعة من العلماء المُفتين يتمشون فيه ، أن جاء قروي يستفتي العلماء في أمر له ، لكنهم لم يعرفوا جواباً لسؤال القروي واعتذروا له . فعزَّ على الغزالي عدم إرشاده ودوام حيرته واستفهامه ، فدعاه وأجابه عن كل مسألته . فأخذ القروي يهزأ به ويقول : كبار المفتين ما أجابوني ، وأنت فقير عامي تتجرأ على الإجابة . فانتبه المفتون إلى لقاء الغزالي بالقروي بعد أن تعالى صوت القروي الساخر ، فدعوا

القروي وسألوه : ما الذي حدَّثك به هذا العامي ؟ فشرح لهم الحال وأطلعهم على الإجابة التي سمعها منه . فاندهشوا من تلك الإجابة المفصَّلة الدقيقة ، وعرفوا أنها إجابة عالم جهبذ كبير وليس إجابة عامي جاهل . فجاءوا إلى الغزالي مسرعين قد أحاطوا به يستخبرونه عن اسمه وحاله . فلما تعرَّفوا إليه سألوه أن يعقد لهم مجلس علم يومي في صحن الجامع الأموي . فقال في نفسه وهم يسألونه ذلك : من هذا هربت . فما أن أرخى الليل سدوله حتى سافر من ليلته وترك دمشق .

أخذ الغزالي يجول في البلاد ، ويزور المشاهد والمساجد ، فزار مصر والإسكندرية وأقام بها مدة ، وأحياناً كثيرة أقام في الصحاري والبرية . امتدت هجرته لبغداد أو رحلة العزلة هذه نحواً من عشر سنين ، أغلب أيامها قضاها في دمشق . يروض نفسه ويجاهدها ، ويكلفها مشاقَّ العبادات بأنواع القرب والطاعات .

وقد روى ابن العماد في كتابه (شذرات الذهب) عن أبي بكر بن العربي العالم المالكي الشهير قوله : رأيت الإمام الغزالي في البرية سائحاً بيده عكازه وعليه ثوب مرقع ، وكنت قد رأيته في بغداد وقد أحاطه في مجلسه

نحو من ٤٠٠ عمامة من أكابر الناس وأفاضلهم يأخذون عنه العلم . فدنوت منه وسـلَّمت عليه وقلت له : يا إمام أليس تدريس العلم في بغداد خيراً من حالك هذه ؟ فنظر إليَّ شزراً وقال : لم يكن ذلك لله . ثم أعرض عني وأنشد يقول :

تركت هوى ليلى وسعدى بمعزل وعدتُ إلى مصحوب أول منزل
ونادتنـي الأشـواقُ مهـلاً فهذه منازلُ مَن تهوى رويدك فانزل
غزلت لهم غزلاً رقيقـاً فلم أجد لغزلـي نسّاجاً فكسـرت مغزلي

عزيـزي القارئ .. قبـل أن أكمل لك القصة وماذا حصـل فيها ، أريد أن أطلعك قبل كل شيء وفي هذا الموضع على سرٍّ دهشتي ببطلها الإمام الغزالي رحمه الله . طالب علم صغير طموح اسـتطاع بفضل الله وما وهبه من ذكاء ومواهب أن يحفر بعد سنين ليست بالقليلة من الجد والسهر والتعب اسمه بعقول البشـر ، وتتصدر عباراته مجالس العلم والتدريس ، ثم ينسـلخ من كل ذلك الجاه الذي غارت منه السلاطين والأمراء ليبدو كالعامة الفقراء . عالم يجلس تحت كرسـيه بإصغاء وانبهار آلاف من طلبة العلم ومئات من العلماء ، ثم وفي أثناء ذلك العز والسلطان يلتفت إلى قلبه المريض ليجده

وقد نخرته العلل النفسية من حب الدنيا والتباهي والفوز على الخصوم ، ليقرر العزلة عشر سنين يعالج فيها ذلك القلب المثقل بالأسقام ، غير آبه ولا حزين على اندثار اسمه وعزه وذكره . فهل رأيت اليوم عالماً بشجاعته وفطنته وخوفه على ضياع آخرته ؟!

قارئي الكريم .. كيف لأحد من الناس وسط زحمة وزهو العلم والشرف أن يمحص ذاته هذا التمحيص ، ويأتي إليها عامداً بمنخل عقلي نفسي يكشف فيه أعمال خير قدَّمتها خالصة لله ، وأعمال قدَّمتها ذاته سمعة ورياء ؟! ألا يُدهشك هذا ويستوقفك ؟ كثيراً ما أتعجب وأتذكر هذا كلما رأيت إنساناً واقعاً في حرام بيِّن أو عمل محظور صريح .

أتعجب من إنسان له مال في مَصْرِف ربوي أو يعمل فيه ، كيف يسمع تهديد الله للمرابين في سورة البقرة بقوله : ﴿ يأيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقي من الربا إن كنتم مؤمنين ، فإن لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله ﴾ ، ثم هو يقرب منه ويتعامل به ويتجرأ على حرب الله ورسوله . هو لا يقوى على ميكروب صغير لا يُرى حتى بالمجهر العادي يُسقطه أياماً محموماً ضعيفاً ، ومع ذلك يندفع غير مبال بحرب جبار السموات

والأرض . والإمـــام الغزالي على الجهة الأخرى يُفلِّـــي أعماله النافعة بين أعمال خالصة لله وأعمال سمعة ورياء .

أتعجـــب من إمـــرأة عرفت أنَّ الإجماع قد انعقد بـــكل عصر على وجوب الحجـــاب ، وهي مع بيان هذا لها تجادل وتماطل وتســـوِّف ، وتترك مصير آخرتها لشـــيطانها وهواها ومجاملة صديقاتها . والغزالي في مقابل ذلك يعتزل الدنيا وزينتها عشـــر ســـنين يعتذر فيها لله ويرجو عفوه عن أعمال خير ومجالس علم ونفع ظنها غير خالصة لله .

عزيزي القارئ .. أظنك بلا شـــك ســـتتذكر رحلة الغزالي وعزلته كلما رأيت الناس وقد تســـاهلوا في الوقـــوع في المحظورات والممنوعات ، أو تكالبوا على الدنيا وتناسوا فيها القيم والأخلاق .

وبعد تلـك العزلة الطويلة التي قضاهـا بين البـــلاد والصحـــاري والقفـــار ، عـــاد إلى بغداد عاقداً فيها مجالس الوعـــظ ومحدثاً بكتابه الإحياء . ثم

ما لبث أن عاد إلى وطنه ومسقط رأسه طوس ، مشتغلاً بالذكر والتذكير ، وفاتحاً داره للزائرين والمستنصحين والمتعلمين . وشاء الله عز وجل له أن يعلو شأنه واسمه يوماً بعد يوم ، وتنتشر مؤلفاته انتشاراً سريعاً في أنحاء الشرق والغرب (لا سيما الإحياء والأربعين في أصول الدين) .

سمع وزير خراسان فخر الملك بمكانة الإمام الغزالي وعظيم شأنه ، فقصده بزيارة يطلع فيها على أمره ويستفيد منه . فلما جلس إلى الغزالي وسمع منه ، وتحقق من درجته وكمال فضله وصفاء عقيدته ونقاء سيرته ، تأثر بنصائحه ووعظه ، وازدادت مكانته في نفسه ، وطلب إلى الغزالي ورجاه ألا يُبقي علمه وكلماته بمعزل عن الناس ، وألح عليه أن يرحل إلى نيسابور مدرساً في المدرسة الميمونية النظامية . فلم يجد الغزالي بداً من الاستجابة لطلب الوزير فخر الملك ، فأصبح في نيسابور مدرساً يفيد القاصدين ويُعلِّم الراغبين ، بعيداً عن طلب الشهرة والجاه ومماراة الأقران ومخاصمة المعاندين والمتفيهقين .

يقول ابن عساكر نقلاً عن خطيب نيسابور عبدالغافر الفارسي (وقد كان معاصراً للغزالي) : وقد زرته مراراً لدى رجوعه إلى نظامية نيسابور

أتلمس وأبحث فيه عن الصفات التي كنت قد رأيتها فيه من التباهي على الأقران ، والنظر إليهم بعين الازدراء والاستخفاف اغتراراً بما رُزق من البسطة في النطق ، والعمق في الدراية والعلم ، وسرعة الخاطر ، وجمال العبارة . فرأيته أنه قد صار إلى الضد من ذلك كله ، سمحاً ليناً متواضعاً ، مصفّى عن تلك الكدورات كلها . ظننت في نفسي في بداية الأمر أنه كان متلفعاً بجلباب التكلف ، يتظاهر بما ليس فيه تجملاً وطلباً لمزيد من المدح والثناء ، ولكني أيقنت أن الأمر على خلاف ذلك ، وأنَّ الرجل قد أفاق من الجنون .

وبعد ذلك بزمن .. ترك التدريس في نظامية نيسابور وعاد إلى طوس ، متخذاً إلى جوار بيته مدرسة لطلبة العلم ، وقد وزع أوقاته على قراءة القرآن ، والوعظ والإرشاد ، والقعود للتدريس ، والاشتغال بالحديث ومجالسة أهله ، ومطالعة الصحيحين البخاري ومسلم . قال الإمام الذهبي وابن عساكر وغيرهما : ولو عاش لسبق الكل في فن الحديث وعلومه ، لكن الأجل عاجله يوم الاثنين ١٤ من جمادى الآخرة سنة ٥٠٥ هـ .

انتهت قصة الغزالي وانتهى بفضل الله ونعمته ومنته كتابي عند هذا الحد ، فإن انتفعت بما قرأت ، أو انتفع به أهلك أو أبناؤك أو

طلابـك ، فـأسـألـك أن تدعـو لـي ، وتُؤَمِّن علـى دعائـي هذا .

اللهـم زدنـي قرباً منك وصلة بـك . اللهم أحيني مؤمنـاً مخلصاً لك وأمتني مؤمناً مخلصاً لك وابعثني مؤمناً مخلصاً لك ، اللهم أحيني وأنت راضٍ عنـي وأمتني وأنت راضٍ عني وابعثني وأنت راضٍ عني ، اللهم أحيني سـعيداً وأمتني سـعيداً وابعثني سـعيداً . اللهم أرزقني الفردوس الأعلى وخلدني فيها ولا تضعني في النار طرفة عين . اللهم عُذني من فتنة المسيح الدجال ، وفتنة المحيا والممات ، ومن عذاب القبر وظلمته ووحشته وقبضته . اللهم ظللني بظلك يوم لا ظل إلا ظلك . اللهم أرزقني شهادة في سبيلك خالصة لوجهك ، مقبل فيها غير مدبر . اللهم أرشـدني واهدني ووجِّهني وادفعنـي إلى مـا فيه فلاحي ونجاحي وعزِّي وشـرفي في الدنيـا والآخرة . اللهم يا معلم إبراهيم علمني ويا مُفهِّم سليمان فهمني . اللهم زدني بسطة في العلم والجسـم . اللهم ارزقنـي الحلم والأناة والحكمة وفصل الخطاب . اللهم إني أسألك من خير ما سألك منه عبدك ونبيك محمد [وأستعيذك من شر ما استعاذك منه عبدك ونبيك محمد [. اللهم هب لنا من أزواجنا وذرياتنـا قرة أعين ، واجعلني للمتقـين إماما .. قولوا آمين ، ولكم مثله إن شاء الله تعالى .

لكم كتبته أيها الشباب .. كتبته إلى من أحب

obeikandl.com